دراسات في الأمثال العربية

للدكتور عبد المجيد قطامش

جرت عادة كثير من الدارسين لحياة العرب في الجاهلية على أن يستخلصوا هذه الحياة من الشعر الجاهلي وحده. وهم على جانب كبير من الحق، لأن العرب في هذه الفترة من الزمن كانت أمة أمِّية لا تعرف الكتابة ولا التدوين، فلم تدوِّن تاريخها كما فعلت أمم أخرى.

وشاء الله تعالى أن يقوم الشعر لهذه الأمة مقام التدوين، فقد بلغ من وفرته وكثرته، وصدقه وقوته، أن كان مرآة انعكست عليها الحياة العربية بكل تفاصيلها ودقائقها، وكان «ديوانَ العرب» حقاً.

وإذا كان للشعر الجاهلي هذه المنزلة التي لا تُجحد في رسم معالم الحياة العربية فإن هناك نوعاً آخر من تراث هذه الأمة المجيدة يشتمل على كثير من مظاهر حياتها، ويجيء بعد الشعر في هذا المجال، وأعني به الأمثال القديمة.

لقد أتى العرب منها بالعجب العاجب، وكانت أمثالهم وعاء حكمتهم في جاهليتهم وإسلامهم على سواء، وقد برعوا فيها كما برعوا في الشعر، ففاقوا بها كل أمة سواهم.

ولقد أثبتت الدراسة المستأنية لهذه الأمثال أنه يمكن استخلاص كثير من مظاهر الحياة العربية في العصر الجاهلي منها[1]. وأنه كان ينبغي لأولئك الذين قصروا دراستهم لهذه الحياة على الشعر وحده ألا يغفلوا تلك الأمثال.

ولست أبالغ إذا قلت: إن الأمثال العربية القديمة قد أحاطت بتلك الحياة من جميع جوانبها، وأن فيها من مظاهرها الدقيقة ما قد لا يوجد في الشعر، ولا سيما في الحياة المعيشية.

فمن ناحية الأخلاق والسلوك الاجتماعي نرى فيها الحثَّ على كثير من مكارم الأخلاق، كحفظ اللسان والحلم والصبر والوفاء والغيرة على الحريم، والعفو عند المقدرة، وكالجود والسخاء والشجاعة، والتنفير من الظلم

---

(١) كتاب «الأمثال العربية - دراسة تاريخية تحليلية» للدكتور عبد المجيد قطامش - تحت الطبع.

وعواقبه، ورَأْب الصدوع التي بين الأقارب والإخوان، والمحافظة على ودهم، وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة التي كان العرب يتحلَّون بها، ويدعون إليها.

ومن ناحية أخرى نَوّهت هذه الأمثال بالعديد من الرجال والنساء الذين اشتهروا في العصر الجاهلي بصفات وأخلاق كانوا، وما زالوا، مضرب الأمثال فيها حتى الآن، كالكرماء والأوفياء، والحلماء والحكماء، والفصحاء والبلغاء، والشجعان والفرسان والرماة، وكالفتاك والغادرين، والحمقى والصعاليك، وغيرهم.

وكذلك نجد فيها إشارات كثيرة إلى ما كان يسود هذا المجتمع في ذلك العصر، من حروب وغارات متصلة، ومنها أيام العرب.

وأما من الناحية الطبيعية، أعني وصف الجزيرة العربية، فإن هذه الأمثال قد ألمت بكل ما فيها من صامت وناطق، حيث نعثر فيها على كثير من أسماء النبات التي كانت تنمو هنالك، من أشجار وشجيرات وزروع، مختلفات الأنواع والأشكال، تمثل بها العرب، وصاغوا من صفاتها وخصائصها أروع الأمثال، وأجمل التشبيهات والاستعارات والكنايات.

ونعثر أيضاً فيها على أسماء كثير من الجبال والسهول والمياه والمراعي والمآسد والبلدان. كما نعثر على أسماء آلات القتال والصيد، وأدوات الحرف والأعمال التي كانوا يمارسونها، وعلى أسماء الأوعية والآنية التي كانوا يستخدمونها في طعامهم وشرابهم وسائر أمورهم، وكذلك نعثر على أنواع اللباس وأصناف الزينة التي كانت سائدة عندهم.

وأما أنواع الحيوان التي كانت تعيش في بلاد العرب في تلك الحقبة من الزمن فإن الأمثال لم تترك منها شاردة ولا واردة، حيث تمثل العرب بالإبل فأكثروا من ذلك، لأن الإبل كانت أعز أموالهم، وكانت تملك عليهم كل مشاعرهم، ومن ثَم تمثلوا بأعضائها وصفاتها وأسنانها وأدوائها، وبكل أداة تتصل بها. وتمثلوا بالحيوان النافع والضار، والقوي والضعيف، والماهر والخامل، والكبير والصغير، حتى تمثلوا بالذرة فقالوا: «أشمُّ من ذرة».

وقد برع العرب في التمثل بالحيوان براعة ملحوظة، حيث كانوا يعايشون الحيوان معايشة مباشرة، فعرفوا عنه كثيراً من صفاته وغرائزه، واستطاعوا بقدرتهم البلاغية المعروفة عنهم أن يتمثلوا بهذه الصفات والغرائز، ويشبهوا بها أخلاق الإنسان الفاضلة وغير الفاضلة، وفاقوا في هذا كل الأمم، يقول حمزة بن الحسن الأصبهاني (نحو ٣٥١ هـ):

«إن أكثر أمثال العرب مضروبة بالبهائم، فهم لا يكادون يذمون ويمدحون إلا بما

يجدون في البهائم، لما ألهمها الله جل ثناؤه من المعرفة، وأشعرها من الفطنة، وبصرّها بما يقيتها ويعيشها، والسبب في تفرد العرب باستعمال ذلك دون سائر الأمم ،أن العرب أناس إنما وضعوا بيوتهم وأبنيتهم وسط السباع والأحناش، والهمج والحشرات، فليس يعثرون إلا بها، ولا يفتحون عيونهم على سواها، فحين تأملوا أخلاق تلك البهائم فألفوها متفرقة في أنواعها، ثم رأوها مجتمعة في الإنسان الذي يجمع إلى حرص الذئب حذَر الغراب، وإلى تدبير الذرّ كسبَ النمل، وإلى هداية الحمام حزم الحرْباء، وإلى حراسة الكَراكيّ خَتْل الثعالب، إلى غير ذلك من أخلاقها، قالوا عند ضرب الأمثال بأخلاق الإنسان: إن فلاناً له جرأة الأسد، ووثوب النمر، وروغان الثعلب، وختل الفهد، وصولة الجمل، وحملة الثور، وغدر الذئب، وحفاظ الكلب، وعقوق الضب، وجمع الذر، وهداية الحمام، وحماقة الضبع، وجبن الصِّفْرِد، وغباوة الديك، وتحنن الدجاجة، وبر الهرة، ومنع الصبي، وحراسة الكُرْكي، وحذر الغراب، واختطاف العُقاب»[1].

أما العادات والمعتقدات التي كانت تفرض سلطانها على هذا المجتمع الجاهلي فقد أشارت الأمثال إلى كثير منها. وهو ما سوف أتناوله بالتفصيل في هذا البحث كنموذج لما يمكن أن يؤخذ من حياة العرب في الجاهلية من أمثالهم، وأرجيء الحديث عن مظاهر الحياة الأخرى التي لخصتها آنفاً إلى بحوث أخرى تنشر في هذه المجلة إن شاء الله تعالى.

أولاً: بعض عادات العرب في الجاهلية كما صورتها أمثالهم

الميسر[2]

الميسر هو اللعب بالقداح، والمقامرة عليها، وكان ذلك عادة فاشية بين الأغنياء من عرب الجاهلية، وكانت له بواعث اجتماعية، نعثر عليها كثيراً في الشعر الجاهلي، وفي مقدمة هذه البواعث الجود والقرى، وإغاثة الفقراء والمعوزين، ومن ثم كان الوقت الطبيعي لممارسته فصل الشتاء، حين تجدب الأرض، ويعم الفقر، ويحتاج الناس إلى الطعام.

ويزعم العرب أن أول من وضع الميسر، وأجال القداح على الجزور لقمان العادي، وأنه كان أضربَ الناس بالقداح، وكان له ثمانية

---

(١) مقدمة «الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة» تحقيقي ـ ٥٩، ٦٠

(٢) انظر في الميسر وقداحه وطريقته عندهم وبواعثه: الميسر والقداح لابن قتيبة، نهاية الأرب للنويري ٣/١١٨، ١١٩، بلوغ الأرب للألوسي ٣/٥٣ وما بعدها، صبح الأعشى ١/٨٢٥، المخصص ١٣/٢٠ ـ ٢٣، تفسير الفخر الرازي ٢/٢٢٠، تفسير القرطبي ٣/٥٧، البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٥٧، الميسر والأزلام للأستاذ عبد السلام هارون، الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي ٣٥١ ـ ٣٥٦

أيسار يلازمونه، ويلعبون معه، وينسبون إليه، ومن ثم قالوا في أمثالهم: «أَيْسَرُ من لقمانَ»[1] وقالوا للأيسار إذا أرادوا تشريفَهم: «هم كأَيْسارِ لقمانَ»[2]. وقد تمثل بهم طرفة في قوله:

وهُمُ أيسارُ لقمانَ إذا
أَغْلَتِ الشَّتْوةُ أبداءَ الجُزُرْ[3]

وجاء في الأمثال العربية غير هذا ما يشير إلى طريقة الميسر، إذ قالوا للرجل ينصحونه بأن يَعرف قدره، ويتأمل أمره، حتى يعرف ما له وما عليه: «أَبْصِرْ وَسْمَ قِدْحِك»[4] وقالوا للرجل يكشف عما في نفسه: «صَدَقَني وَسْمَ قِدْحِه»[5] فهذان المثلان يشتملان على إشارة إلى قداح الميسر، وما كانت تُوسم به وتميَّز، وهي عِيدان تُتَّخذ من شجر النبع، فتُنحت وتملَّس، وتُجعل سواء في الطول، وإن كانت تختلف في العلامات والوسُوم، إذ كانت تميَّز بجُزوز تبيِّن نصيبَ كل منها، فكان على بعضها حَزٌّ واحد، وعلى بعضها حَزَّان أو ثلاثة أو أربعة حسب اصطلاحهم على أنصبة كل منها. وربما كانت هذه العلامات بالنار بدل الحزوز، وكان عدد هذه القداح عشرة، سبعة منها عليها علامات ولها أنصبة، وثلاثة غُفْل ليس بها علامات، ولا حظوظ لها.

وقالوا للرجل يعمل عملاً لم يَحِن أوانُه بعد: «مُجيلُ القِدْح والجَزور ترتع»[6] وهذا المثل يشتمل على كيفية الميسر أيضاً، ذلك أن الأيسار كانو يجتمعون ويشترون جَزوراً، ويضمنون ثمنه لصاحبه، ثم يقسمه الجازر عشرة أجزاء، ثم يجاء بالقداح فيأخذ كل من الأيسار منها على مقدرته، ثم تجعل في خريطة، ويجيلها المحكَّم فيها ويحركها، ثم يخرج أول قِدح باسم أحدهم، ويكون له نصيبه، ويبقى القدح خارج الخريطة، ثم يخرج القدح الثاني للآخر، وهكذا حتى العشرة. أما الثلاثة الذين تخرج لهم القداح الغفل، فيغرمون ثمن الجزور بالتساوي.

والمثل الذي معنا يشير إلى هذه الأعمال وترتب بعضها على بعض، حيث إن إجالة القداح في الخريطة إنما تكون بعد أن تنحر الجزور، وتقسم أجزاؤها، أما وهي حية ترتع

---

(١) الدرة الفاخرة ٢ / ٤٣٧

(٢) نفسه ٢ / ٤٣٧

(٣) ديوانه ٨٥، واللسان والتاج (يبدأ، يسر) والأيسار: المجتمعون على الميسر والمتقامرون به، ومفرده ياسر ويسر - بفتحتين. والشتوة: اسم مرة من: شتا بالمكان، إذا أقام به شتاء. والأبداء: جمع بدء، وهو المفصل، وقيل: النصيب من الجزور، وقيل: خير جزء فيه.

(٤) جمهرة الأمثال ١ / ٧١، المستقصى ١ / ١٨، اللسان (وسم)

(٥) مجمع الأمثال ١ / ٣٩٨، المستقصى ٢ / ١٤٠، اللسان (وسم)

(٦) مجمع الأمثال ٢ / ٣١٦

وتأكل فليس ثمة إجالة للقداح.

ويشير مثل آخر يضربونه لرجل ينتمي إلى نسب ليس له، أو يتمدَّح بما لا يوجد فيه إلى ما كان يحدث من بعض الأيسار، إذ كانوا يُدخلون في القداح قِدْحاً غريباً عنها، فإذا أجالها المحكَّم خرج له صوت يخالف أصواتها، فيعرف أنه ليس من جملة القداح، وهذا المثل هو قولهم: «حَنَّ قِدْحٌ ليس منها»[1] وقد تمثَّل به عمر بن الخطاب حين قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط: أُقتل من بين قريش؟ فقال عمر رضي الله عنه: «حَنَّ قِدْحٌ ليس منها».

ومثل آخر يضربونه لرجل يغيب ثم يجيء بعد فراغ القوم مما هم فيه، وهو قولهم: «آبَ وقِدْحُ الفَوْزةِ المَنيحُ»[2] أي عاد بالخيبة. ويتضمن هذا المثل اسم واحد من القداح الثلاثة التي لا نصيب لها، وهي: الوَغْد والسَّفِيح والمَنِيح، والتي جمعها الشاعر في قوله:

لي سهامٌ ليس فيهنَّ رَبِيحُ
هنَّ وَغْدٌ وسَفيحٌ ومَنِيحُ

وكان الميسر والاشتراك فيه من مفاخر العرب ومَمادحهم، وينطق الشعر الجاهلي بهذا، حيث وردت فيه أبيات عدة في الفخر بالميسر والتمدح به، ليس هذا البحث محل ذكرها.

كما كان عدم الاشتراك فيه، ولا سيما من الأغنياء الموسرين، مَذمة وعيباً عندهم، وكانوا يطلقون على الرجل الذي لا يدخل مع الأيسار وهو موسر اسم «البَرَم» ويضربون به المثل في اللؤم والبخل فيقولون: «ألأَمُ من البَرَم»[3] ويقولون للرجل الذي يجر المنفعة إلى نفسه: «ألأمُ من البَرَم القَرُونِ»[4] ولكل من يجمع خصلتين مكروهتين: «أبَرماً قَرُوناً!»[5]

وأد البنات[6]

يراد بوأد البنات دفنهن أحياء، وكان ذلك من العادات الفاشية عند العرب في الجاهلية، وكان الباعث عليه إما مخافَة العار الذي

---

(١) جمهرة الأمثال ١ / ٣٧٠، مجمع الأمثال ١ / ١٩١، اللسان (حنن)

(٢) مجمع الأمثال ١ / ٦٩، وآب: رجع

(٣) الدرة الفاخرة ٢ / ٣٧٤، اللسان (برم)

(٤) المصدران السابقان. والقرون: الذي يأكل قطعتين قطعتين من اللحم، أو تمرتين تمرتين

(٥) مجمع الأمثال ١ / ١٠٣، واللسان (البرم)

(٦) انظر في وأد البنات: الأغاني ١٢/١٤٤، ١٩/٢ وما بعدها (ساسى) وبلوغ الأرب ٣/٤١ ـ ٦٦، والأسرة والمجتمع للدكتور علي عبد الواحد وافي ١١٨ ـ ١٢٣، والحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي. ١٤٨ ـ ١٥٣، وتفسير القرطبي ١٠/١١٧، وتفسير جزء عم للإمام محمد عبده ٢٣، والدرة الفاخرة لحمزة الأصبهاني ١ / ٢٧٩، واللسان والتاج (وأد)

يلحقهم بسبيهن إذا سُبين، وطَمِع فيهن غيرُ الأكفاء، وإما مخافَة الفقر والإملاق.

وقد أشار مثلان من أمثالهم إلى هذه العادة المنكرة، وهما قولهم: «أضلُّ من مؤُودة»[1]، و«أضْيَع من مؤودة»[2] وإنما قالوا ذلك لأنهم كانت لهم طرق في وأد البنات تقشعر منها الجلود، وتشمئز منها النفوس، منها أن الرجل منهم كان إذا وُلد له بنت تركها حتى تبلغ السادسة من عمرها، ثم قال لأمها: طَيِّبيها وزَيِّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، ثم يذهب بها إلى الصحراء، وقد أعدّ لها حفرة فيها، فإذا بلغ هذه الحفرة قال لابنته: انظري فيها، ثم يدفعها إليها دفعاً، ويهيل عليها التراب حتى تسوَّى بالأرض.

ومنها أن الوالدة كانت إذا جاءها المخاض حَفرت حفرة في الصحراء فتمخَّضت على رأسها فإن المولود بنتاً رمت بها فيها، وإن كان ذكراً رَجعت به معها.[3]

وسم الإبل بالنار

جرت عادة العرب على أن يميز كلٌّ منهم إبلَه عن إبل غيره، وكان يتمّ لهم هذا التمييز بوسمها بنار تسمى «نار الوَسْم» كانت تختلف من إبل إلى إبل، بحيث إذا نظر الناس في هذه النار، وهذا الوسم عرفوا أصحاب الإبل، ولم يحتاجوا إلى السؤال عنهم.

وجاء في أمثالهم ما يشهد بهذه العادة، إذ قالوا: «نِجَارُها نارُها»[4] ومعناه أن سمة هذه الإبل تدل على أصلها وأصحابها، وفي هذا المعنى قال راجزهم:

ـ لا تَنْسُبوها وانظروا ما نَارُها[5] ـ

وبهذه النار أيضاً كانت تقدّم إبل الشرفاء والأعزة على غيرها في الشرب إذا وردت الماء، وإلى هذا يشير قول الراجز الآخر:

حتى سَقَوْا آبالَهم بالنَّارِ[6]
والنارُ قد تَشْفِي من الأوارِ

إذ معناه أن هؤلاء القوم سَقَوا إبلهم بالسِّمة التي بالنار، لأن الناس لما نظروا فيها عرفوا أربابَ الإبل، وشرفَهم وعزَّتهم، فَخلَّوا لها الماء، وقدّموها على إبلهم فشربت.

ومن أمثالهم في هذا أيضاً قولهم: «كلُّ

---

(١) الدرة الفاخرة ١ / ٢٧٨، والضلال: الضياع والهلاك.
(٢) الدرة الفاخرة ١ / ٢٧٧
(٣) بلوغ الأرب، وتفسير جزء عم ٢٣
(٤) فصل المقال ٢٤٥، ومجمع الأمثال ٢ / ٣٣٨، والنجار: الأصل.
(٥) مجمع الأمثال ٢ / ٣٣٨
(٦) اللسان والتاج (نور) ويروى: «قد سُقيَت آباؤهم بالنار»

نِجَارِ إبلٍ نِجَارُها[1]» وهو مأخوذ من قول أحد اللصوص، وكان قد أغار على إبل من وجوهٍ مختلفة، وجاء بها إلى السوق لبيعها، فسأله الناس عن سِمَتها للتعرف على أصحابها، فأنشأ يقول:

تَسألُني الباعةُ أين نارُها[2]
إذ زَعْزَعوها فسَمَتْ أبصارُها
كلُّ نِجَارِ إبلٍ نِجارُها
وكلُّ دارٍ لأُناسٍ دارُها
وكلُّ نارِ العالمين نارُها

نار الحرب

وكان من عادتهم في الحرب إذا توقعوا جيشاً عظيماً، وأرادوا اجتماع قومهم أوقدوا بالليل ناراً على جَبلهم، ليكون ذلك إعلاماً لهم كي ينهضوا للحرب، فإذا كان الأمر خطيراً أوقدوا ناريْن[3]. وكانوا يبالغون في تَسعير هذه النار، كما يفيد قولهم في مثل لهم: «نارُ الحربِ أَسْعَرُ»[4].

وقد أشار إلى هذه النار عمرو بن كلثوم إذ يقول في معلقته:

ونحن غَداةَ أوقِدَ في خَزَازَى
رَفَدْنا فوقَ رَفْدِ الرَّافِدِينَا[5]

كما أشار إلى النارَيْن الفرزدقُ في قوله:

قَتلوا الصنائعَ والملوكَ وأوقدوا
نارَيْن أشرفَتَا على النِّيرادِ[6]
لولا فوارسُ تغلبَ ابنةِ وائلٍ
سَدَّ العدوُّ عليكَ كلَّ مكانِ

النذير العريان

وكان من عاداتهم في الحروب والغارات أن الرجل منهم إذا رأى الغارةَ قد فَجِئَتهم، وأراد إنذار قومه تجرَّد من ثيابه، وأشار بها، فيعلمون أن خطراً يَدْهمهم، فيستعدوا له، وهذا الرجل كانوا يسمونه «النذير العريان». ومن أمثالهم فيه قولهم في كل شيء تخشى مفاجأته: «أنا النَّذِير العريان»[7] ويَنقل ابن منظور في تفسير المثل قوله: «خُصَّ العريان لأنه أَبْيَنُ للعين، وأشنع عند المُبصر، وذلك أن رَبيئة القوم وعينَهم يكون على مكانٍ عالٍ، فإذا رأى العدوَّ وقد

---

(١) فصل المقال ١٦٢، واللسان والتاج (نجر)
(٢) الحيوان ٤ / ٤٩٢، واللسان والتاج (نجر، نور)
(٣) الحيوان ٤ / ٤٧٤، ٤٧٥
(٤) الدرة الفاخرة ٢ / ٤٥٨
(٥) شرح المعلقات العشر للتبريزي ٣١٢، واللسان والتاج (خزز) ومعجم البلدان (خزاز، وخزازى).
(٦) ديوانه ٨٨٣
(٧) الفاخر ٨٤، ومجمع الأمثال ١ / ٤٨، واللسان (نذر)

أقبل نَزَع ثوبه، وألاح به، لينذر قومَه، ويبقى عرياناً»[1].

الاستنباح

وكان الرجل منهم إذا خرج مُغيراً أو زائراً أو ملتمساً لِلقرَى، أو ضَلَّ الطريق ليلاً، ولم يبصر ناراً تَهديه عَوىَ ونَبح مثل نُباح الكلب، لتسمعه الكلاب، وتتوهمه كلباً فتجيبه بنُباحها فيستدل بهذا النباح على موضع الناس[2].

وفي مَثل من أمثالهم ما يؤيد هذه العادة، إذ يقولون فيمن يَطلب الخير فيقع في شر، أو في المستغيث بمن لا يغيثه: «لو لكَ أعوي ما عَوَيْتُ»[3] أو «لو لكَ عَوَيتُ لم أعوه»[4] وأصله أن رجلاً ضَلَّ في قَفرة، فنبح لتجيبه الكلاب، فسمع صوته ذئب فأقبل يريده. وقد رَدَّد الشعر العربي هذه العادة بشكل واسع[5].

أكل الدم

وكان من عادتهم أيضاً أن الرجل منهم إذا حَلَّ به ضيف، وليس لديه ما يقْريه به، وشَحَّ أن ينحر له راحلته عَمد إليها فَفَصَدها، حتى إذا خرج الدم أخذه فَسخَّنه حتى يَجمد، ثم أطعمه الضيفَ، ويسمى هذا الدم «الفَصِيد» وكانوا يفعلون ذلك أيضاً في الأَزْمة وشدَّة الزمان[6].

ومن أمثالهم التي تشير إلى هذه العادة قولهم في القناعة ببعض الحاجة: «لَمْ يُحْرَمْ مَنْ فُصِد له[7]» وأصله أن رجلين باتا عند أعرابي، فالتقيا صباحاً فسأل أحدهما صاحبه عن القِرَى، فقال: ما قُرِيتُ وإنما فُصِد لي، فأجابه بالمثل.

ضرب الثور إذا عافت البقر الماء[8]

كان من عادة العرب إذا أوردوا البقر الماء فلم تشرب، إمَّا لكَدر الماء، أو لأنه لا عَطَش بها ضربوا الثور الذي معها، ليقتحم الماء، فتتبعه البقر. ويقال في ضرب الثور رأي آخر، هو أن العرب كانت تزعم أن الجن تركب ظهور الثِّيران فتصدها عن الشرب، فتفعل البقرُ مثلَها، فيضربون الثِّيران كي تشرب.

ومهما يكن من شيء فقد أشار مثل من أمثالهم إلى هذه العادة، هو قولهم في الرجل

---

(١) اللسان (عوى)

(٢) الحيوان ١ / ٣٧٩، واللسان (عوى)

(٣) اللسان (عوى)

(٤) جمهرة الأمثال ٢ / ١٩١، واللسان (عوى)

(٥) انظر: الحيوان ١ / ٣٧٧ - ٣٧٩

(٦) اللسان (فصد)

(٧) جمهرة الأمثال ٢ / ١٩٣، واللسان (فصد)

(٨) انظر في هذه العادة: الحيوان ١ / ١٨، ١٩، واللسان والتاج (ثور) والحياة العربية من الشعر الجاهلي ٣٩٨، ٣٩٩

يؤخَذ بذنب غيره. «كالثَّور يُضْرب لَمَّا عافت البَقَر»[1] وقد اقتبس بعضُ الشعراء معنى المثل فقال أَنَس بنُ مدركة الخثعمي في قتله سُلَيْكَ ابن سُلَكة:

إنِّي وَقَتْلي سُلَيْكاً ثم أَعْقِلَهُ
كالثور يُضرب لَمّا عافت البَقرُ[2]

وقال الأعشى:

فإني وما كَلَّفتموني وَرَبِّكُمْ
لأَعلمُ مَن أمسى أَعقَّ وأَحْوبَا[3]
لكالثَّور والجِنِّيُّ يَضرب ظهرَه
وما ذَنْبُه أَنْ عافت الماء مَشربَا
وما ذَنبُه أن عافت الماءَ باقرٌ
وما إنْ تعافُ الماءَ إلا لِيُضْرَبا

كَيُّ البعير السليم ليبرأ الأجرب[4]

وكان من عادتهم أيضاً أن الإبل إذا فشا فيها الجَرب كَوَوا بعيراً صحيحاً أمامها وهي تنظر إليه، زاعمين أن الجَرْبَى تبرأ بذلك، ويدل على هذا قولهم لمن يعاقَب بذنب غيره: «كذى العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو رَاتِعُ»[4] وهو مأخوذ من قول النابغة في اعتذارياته:

فَحَمَّلْتَنِي ذنْبَ امرءٍ وتركتَه
كَذِي العُرِّ يكوَى غيرُه وهو راتعُ[5]

وقد سَخِر الجاحظ من هذه العادة فقال: «وكانوا إذا أصاب إبلَهم العُرُّ كَوَوا السليمَ ليدفعَه عن السَّقيم، فأسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم[6]».

ثانياً: المعتقدات
الزَّجْر والعِيَافة والطِّيَرة[7]
أو التفاؤل والتشاؤم

الزَّجْر والعِيَافة بمعنًى، وهما التفاؤل بأسماء الطير والوحش وأصواتها ومساقطها ومَبَرّها، أو التشاؤم بذلك، ففي اللسان «والزجر: أن تزجر طائراً أو ظبياً سائحاً أو بارحاً فتتطيَّر منه. والزجر: العِيافة، وهو ضرب من

---

(١) جمهرة الأمثال ١ / ٢٨٨، واللسان التاج (ثور)
(٢) الحيوان ١ / ١٨، والمعاني الكبير ٩٢٨، واللسان (ثور)
(٣) ديوانه ١١٥، والحيوان ١ / ١٩، واللسان التاج (ثور)
(٤) انظر: نهاية الأرب ٣/١٢٣، والحيوان ١/١٦، ١٧، والبيان والتبيين ٣/٩٦، والمعاني الكبير ٢٢٩، وبلوغ الأرب ٢/٣٠٥، واللسان والتاج (عرر)، والحياة العربية من الجاهلي ٣٩٦
(٥) مجمع الأمثال ٢ / ١٥٨، واللسان والتاج (عرر)
(٦) ديوانه ٥٤، واللسان والتاج (عرر) (٧) الحيوان ١ / ١٧
(٨) انظر في هذه المعتقدات: الحيوان ٣/١٢٩، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٦، ٤٤٣، ٤٤٧، والبيان والتبيين ٣/١٨٤، وعين الأخبار ١/١٤٦، ١٤٨، والعهدة ٢/٢٠٢، ٢٤٦ ـ ٢٥٠، وصبح الأعشى ١/٣٩٩، ٤٠٠، وبلوغ الأرب ٢/٣٣١، ٣٣٢، والدرة الفاخرة ١/٧٨، ٢٤٨ ـ ٢٥٣، وفصل المقال ٣٧٢، وجامع الأصول لابن الأثير ٨/٤٥٢، والحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي ٣٧٨ ـ ٣٨٧، واللسان والتاج (عرقب، غرب، برح، منح، نطح، جرد، قصد، زجر، طير، عيف، خيل، دأى).

التكهن[1]» وفيه «العيافة: زَجر الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها ومَمرِّها[2]».

وكان زجر الطير وغيره من الحيوان من معتقدات العرب في الجاهلية، ومن العادات الفاشية فيهم، فكان الواحد منهم إذا أراد فعلَ أمر أو تركَه زَجر الطيرَ حتى يطير، فإن طار يميناً كان له حُكْم، وإن طار شِمالاً كان له حكم، وإن طار أماماً كان له حكم، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم[3].

ويشرح ابن الأثير طريقةَ الزجر عندهم في قوله: «كانت العرب إذا خرج أحدَهم من بيته غادياً في بعض الحاجة نَظر هل يرى طائراً يطير فيَزجر سُنوحَه أو رَوحَه، فإذا لم ير ذلك عَمد إلى الطير الواقع على الشجر فحرَّكه ليطير، ثم نظر إلى أي جهة يأخذ فزَجره»[4].

وكان العرب يختلفون في التفاؤل والتشاؤم بالسانح والبارح[5]، فمنهم من كان يتيمَّن بالسانح، ويتشاءم بالبارح، ومنهم من كان يتيمَّن بالبارح ويتشاءم بالسانح. ويذكر ابن دريد أن «السانح يتيمَّن به أهل نَجْد، ويتشاءمون بالبارح، ويخالفهم أهل العالية فيتشاءمون بالسانح، ويتيمَّنون بالبارح[6]» وقد جاء الشعر العربي مؤيداً لهذه الظاهرة[7]. ولعل السبب في هذا الاختلاف أن الزجر والعيافة ضرب من التكهُّن، لا أصلَ له من علم أو منطق، ومن ثَم كانَ مَن تَبَرَّك بشيء مَدَحه، ومن تشاءم به ذَمَّه. على أن كثيراً من عقلاء العرب في الجاهلية أنكر الزجر، ونفى تأثيرَه في مصائر الناس، فقال لبيد:

لَعَمْرُكَ ما تدري الضَّواربُ بالحَصَى
ولا زاجراتُ الطيرِ ما اللهُ صانعُ[8]

وقال عَلقمة بن عَبْدة:

ومن تَعرَّضَ لِلغِرْبانِ يَزْجُرُهَا
على سَلامته لا يُدَّ مَشْئُومُ[9]

وقال عَوْف بن عطية:

---

(١) مادة (زجر)
(٢) مادة (عيف)
(٣) صبح الأعشى ١ / ٣٩٩
(٤) جامع الأصول ٨ / ٤٥٢
(٥) السانح: ماأتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك. والبارح: ما أتاك من ذلك عن يسارك.
(٦) العمدة ٢ / ٢٤٩
(٧) انظر/ اللسان والتاج (منح)
(٨) من قصيدة له في الأغاني ١٥ / ٣٧٣
(٩) ديوانه ٦٧، وهو من المفضلية ١٢٠

نَؤُمُّ البلادَ لِحُبِّ اللِّقَاءِ
ولَا نتَّقِي طائراً حيث طارَا[1]
سَنِيحاً ولا بارحاً إنْ جَرَى
ونرجو هناك بهنَّ اليَسارَا

هذا، ويشير مثلٌ من أمثالهم إلى هذه العقيدة، وهو قولهم: «مَنْ لي بالسَّانِح بعدَ البارِح»[2] (ويضرب في اليأس من الشيء. وأصله أن رجلاً مَرَّت به ظِباءٌ بارحة، فكره ذلك، وتشاءم منه، وأراد أن يرجع عن حاجته، فقال له قائل: امض على وجهك فإنها ستمرّ بك سانحةً، فمضى وجعل يقول: «مَنْ لي بالسَّانِح بعد البارح»).

وأما الطِّيَرة والتطيُّر فيهما التشاؤم بخاصة، وهما مأخوذان من لفظ «الطير» لأن العرب، كما أسلفنا، كانوا يزجرون الطير، ويتشاءمون بها إذا مرت بارحة أو سانحة، فسَموا الشؤم طَيْراً وطائراً وطِيرَة[3]، يقول الجاحظ: «وأصل الطِّيرَة إنما كان من الطَّيْر، ومن جهة الطير إذا مَرَّ بارحاً أو سانحاً، أو رآه يَتفلَّى وَيَنْتَتف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعورَ من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زَجروا عند ذلك، وتطيَّروا عندها، كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال، فكان زجر الطَّير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك في كل شيء[4].

والطِّيرَة والتفاؤل عقيدتان شائعتان في كل الأمم والشعوب على مَسار التاريخ الإنساني الطويل، فما من شعبٍ إلا وله ما يَتفاءل به أو يَتشاءم.

وكان العرب في الجاهلية يتشاءمون بأنواع خاصة من الطير والوحش، نَطق بها شعرهم، وأمثالهم، فكانوا يتطيرون بالبارح أو السانح على خلاف بينهم في ذلك، وكانوا يتطيرون بالنَّطيح والقَعِيد من الحيوان، وبالثور الأَعْضَب أو الأبتر[5]. وكانوا يتطيرون بالجَراد لأن فيه معنى الجَرْد، ولأنه ذو ألوان[6]، ولأن من معانيه القَحْط والمنع والتَّعْرِيَة والبِلَى[7].

وقد ضربوا أمثالهم في الشؤم بأربعة أنواع من الطير هي: الغراب، والأَخْيَل، والزُّمَّاح، والبُوم.

---

(١) معجم الشعراء للمرزباني ٢٧٦
(٢) جمهرة الأمثال ٢ / ٢٥٩، واللسان (منح)
(٣) اللسان (طير)
(٤) الحيوان ٣ / ٤٣٨
(٥) النطيح والناطح: ما يستقبلك ويأتيك من أمامك من الطير والظباء والوحش وغيرها مما يُزجر. والقعيد: ما أتاك من ورائك. والأعضب: المكسور القرن. والأبتر: المقطوع الذنب.
(٦) الحيوان ٣ / ١٣٦
(٧) اللسان (جرد)

أما الغراب فكان في مقدمة ما يتطيَّرون به، إذ يقول مثل من أمثالهم «أشأم من غراب البَيْن[1]» وإنما أضافوه إلى «البَيْنِ» وألزموه هذا الاسم «لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنُّجعة وقَع في مواضع بيوتهم يتلمَّس ويَتقمَّم، فتشاءموا به، وتطيروا منه، إذ كان لا يَعتري منازلَهم إلا إذا بانوا، فسموه «غراب البَيْن» ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم مخافَة الزجر والطِّيرَة[2]».

ويُطبق العلماء على أن هذا الطائر كان أنكَد الطير عندهم، فيقول الجاحظ: «فالغراب أكثر من جميع ما يُتطير به في باب الشؤم، ألاَ تراهم كلما ذَكروا مما يَتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه[3]»، ويقول حمزة الأصبهاني: «وليس في الأرض بارح ولا نَطِيح، ولا قَعِيد ولا أعضَب، ولا شيء مما يتشاءمون به إلا والغراب أنكدُ منه[4]»، ويقول ابن رشيق: «والغراب أعظم ما يتطيرون به، والقول فيه أكثر من أن يُطلَب عليه شاهد، ويسمونه حاتماً لأنه يُحتِّم عليهم بالفراق، ويسمونه الأعورَ على جهة التطير بذلك، إذ كان أصحَّ الطير بصراً[5]».

أما السبب في تطيرهم بالغراب فقد لَخصه الجاحظ في سَواده، وحلوله بالديار إذا رحل عنها أهلها، ووقوعه على ذوات الدَّبَر من إبلهم، يَنقر دَبرَها، ويُحدث بها أضراراً بليغة[6].

وبلغ من تطير العرب به، وبُغضهم له أن تحرَّزوا من التصريح باسمه وسَمَوا عنه بالأعور، على الرغم من أنه مشهور عندهم بحدَّة البصر، وصَفاء العين، وصحة البدَن، كما جاء في قولهم: «أبصَرُ من غراب[7]» و«أصفى عيناً من غراب[8]» و«أصحُّ بَدَناً من غُراب[9]» كما بلغ من تطيرهم به أنهم اشتقوا من اسمه كلمات تدل على الفراق والنَّوَى، وهي: الغُرْبة والاغتراب والغَرِيب[10].

وأما الأَخْيَل فهو طائر على قَدْر الهدهد،

---

(١) الدرة الفاخرة ١ / ٢٤٩، واللسان (غرب)
(٢) الدرة الفاخرة ١ / ٢٤٩
(٣) الحيوان ٣ / ٤٤٣
(٤) الدرة الفاخرة ١ / ٢٥٠
(٥) العمدة٢ / ٢٤٧
(٦) الحيوان ٣ / ١٢٩
(٧) الدرة الفاخرة ١ / ٧٨، واللسان (غرب)
(٨) المستقصى ١ / ٢١٠، واللسان (غرب)
(٩) الحيوان ٣ / ١٣٠
(١٠) الدرة الفاخرة ١ / ٢٥٠، والحيوان ٣ / ١٣٥

مُرَقَّط بحُمرة وخُضْرة وبَياضٍ وسَواد، وإنما تشاءموا به لأنه كان لا يقع على ظهر بعير دَبِرٍ إلا عَقَره، ولذا كانوا يسمونه «مُقَطِّع الظُّهور»[1] ومَثَلُهم الذي يشهد بتشاؤمهم منه قولهم: «أشأمُ من الأَخْيَل»[2].

وأما الزُّمَّاح فكان طائراً عظيماً، يقال: إنه كان يقع على آطام يَثْرب ويَصيح: خَرِّبْ خَرِّبْ، فجاء لعادته عاماً فرماه رجل منهم بسهم فقتله، ثم قَسَّم لحمَه في الجيران، فلم يَحُل الحولُ على من أصاب من ذلك اللحم حتى مات، ومن ثَم ضربوا به المثل في الشؤم، وقالوا: «أشأم من الزُّمَّاح»[3] وتمثل به قيس بن الخَطِيم في قوله:

أَعلَى العَهْدِ أصبحْت أمُّ عمرٍو
ليتَ شعري أم عاقَها الزُّمَّاحُ[4]؟!

وأما البُوم فكانوا يسمونه «طَيْر العَراقِيب[5]» ذلك أنه كان ينقضُّ ليلاً على ما بقي من عظام الجيفة فيذهب بها، فتشاءموا به، وقالوا: «أشأم من طَيرْ العَراقيب[6]».

الحج

الحج معروف عند الناس منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولما جاء الإسلام أقرَّه وأوجبه بعد أن أزال ما كان فيه من ضروب الشرك والمنكرات، وزاد فيه مناسكَ وعبادات جديدة.

وتؤكد الأمثال العربية أن العرب في الجاهلية كانوا يَحجون، وكانوا يقومون ببعض شعائر الحج المعروفة، كالوقوف بعرفة والمزدَلِفة، والنَّحر، فمن أمثالهم «أقبل الحاجُّ والدَّاجُّ»[7] و «ما حَجَّ ولكنه دَجَّ»[8] و «الحاجَّ أسمعتَ»[9].

ومنها قولهم: «أشرِقْ ثَبِيْر كيما نُغِير»[10] أي ادخل يا ثبيرُ في الشروق كي نسرع إلى النحر، لأنهم كانوا إذا حجوا، ووقفوا بعرفات أو المزدلفة لم يُفيضوا منها حتى تشرق الشمس.

---

(١) الدرة الفاخرة ١ / ٢٤٩

(٢) نفسه ١ / ٢٤٩، واللسان (خيل)

(٣) الدرة الفاخرة ١ / ٢٤٨

(٤) ملحق ديوانه ١٦٤، واللسان والتاج (زمح)

(٥) العراقيب: جمع عرقوب، ويراد به هنا آخر ما يتبقى من الجيفة.

(٦) الدرة الفاخرة ١ / ٢٤٨، واللسان والتاج (عرقب)

(٧) مجمع الأمثال ٢ / ٢٨٥، واللسان (حجج) والداج: الذي يخرج للتجارة.

(٨) المصدران السابقان.

(٩) المستقصى ١ / ٣٠٩، ومعناه: إذا أسمعت الحاجَّ فقد أسمعتَ الخلق كلَّه، ويضرب في إفشاء السر.

(١٠) مجمع الأمثال ١ / ٣٦٢، واللسان (ثبر) وثبير: جبل من جبال مكّة.

ومنها «تركتُه على مثل ليلة الصَّدَر»[1] والصَّدَر: اليوم الرابع من أيام النحر، لأن الناس يَصدرون فيه عن مكة إلى ديارهم.

ويشير مثل آخر إلى عمل من أعمال الحج عندهم، وهو قولهم: «أصحُّ من عَيْر أبي سَيَّارة»[2] إذ يذكر العلماء أن أبا سَيَّارة هذا رجل من عَدْوان، كان له حمار أسود أجاز الناسَ عليه أيام الحج من المزدلفة إلى مِنىً أربعين عاماً.

تحريم أنواع من الحيوان

وكان العرب في الجاهلية يحرِّمون على أنفسهم أنواعاً خاصة من الحيوان فلا يذبحونها، ولا يمنعونها عن مَرْعىً تريده، ولا يَصدُّونها عن ماء تَردُه، ويُعفون ظهورَها من الركوب والحَمْل، وكانوا يسمونها البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحامي[3].

ويشير مثل من أمثالهم إلى هذه العقيدة، وهو قولهم «حَراماً يركبُ من لا حَلالَ له[4]»

ويذكر العلماء في أصل هذا المثل «أن حَرْملة بن عبد الله القُرَيْعي أغار على إبل جُرَيَّة بن أوس الهُجَيْمي يوم «مَسْلوق» فأطردها غيرَ ناقة مما يحرِّم أهل الجاهلية ركوبها، فأراد أن يركبها جُرَيَّة في أثر القوم، فقال له ابن أخته: إنها حرام، فقال المثل». ويضرب في القناعة باليسير عند فوات الجزيل[5].

الفَرَع

والفَرَع والفَرَعة بفتح الراء: أول نِتاج الإبل والغنم، وكان أهلُ الجاهلية يَذبحونه لآلهتهم تبركاً وتقرباً. وقيل: هو ذِبْح كان يُذبح إذا بلغت الإبل ما يتمناه صاحبها. وقيل: بعير كان يذبحه الرجل كل عام إذا بلغت إبله مائةَ بعير، فيُنحر ويأكُله الناس، ولا يذوقه الرجل هو ولا أهلهُ[6].

وفي أمثالهم ما يدل على هذا المعتقَد عندهم، إذ قالوا: «أولُ الصَّيْدِ فَرَعٌ»[7] أو«أول الصَّيد فَرَعٌ ونِصَابٌ»[8] ذلك أنهم كانوا يُرسلون أول شيء يصيدونه إلى آلهتهم تيمُّناً

---

(١) اللسان (صدر) ومعناه: تركته على حال لا خيَر فيه.

(٢) الدرة الفاخرة ١ / ٢٧١، والحيوان ٢ / ٢٥٧، واللسان (سير).

(٣) انظر في معنى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وأول من سَنَّ هذه السنة من العرب، ورأي الإسلام فيها: صبح الأعشى ١/٤٠٢، ٤٠٣، وبلوغ الأرب ٣ / ٣٦ ـ ٣٩، وكتب التفسير (سورة المائدة، الآية ١٠٣) واللسان والتاج (سيب، بحر، وصل، حما)

(٤) المستقصى ١ / ٣١١، واللسان (سيب)

(٥) المستقصى ١ / ٣١١، وانظر: اللسان (سيب)

(٦) بلوغ الأرب ٣ / ٣٩، ٤٠، واللسان (فرع).

(٧) مجمع الأمثال ١ / ٢٥، والمستقصى ١ / ٤٤٠

(٨) مجمع الأمثال ١ / ٢٥

بذلك. وقالوا كذلك: «أفْرَع بالظَّبْي وفي المِعْزَى دَثَر»[1]. وأفرع بالظبي: ذَبحه، والدَّثَر بفتحتين: الكَثْرة، ومعناه أن مِعزاه كثيرة، وهو على الرغم من ذلك، يَذبح الظبي، ويضرب المثل لمن له إخوان كثير ولكنه يستعين بغيرهم.

الرَّتَم[2]

وكان الرجل منهم إذا أراد سفراً عَقَد بين غصنين من شجرة، غصناً على غصن، أو عقد بين شجرتين، أو عقد خيطاً في شجرة، معتقداً أن امرأته إذا بقيت على العَهْد، ولم تَخُنه ظلت العقدة على حالها، وإلا فقد نَقضت العهدَ وخانته، وكانوا يطلقون على هذا: الرَّتَم والرُّتْمة والرَّتِيمة[3].

ويبدو كذلك أن هذا كان من معتقدات الجُهَّال وحدهم، أما العقلاء فكانوا لا يَدينون به، ولا بجَدْواه، يدل على ذلك قولهم في أمثالهم:

«أَمْحَلُ من تَعقاد الرَّتَم»[4] «فإن كلمة «أَمْحَل» مشتقة من كلمة «المُحال» وهو الباطل، كما يدل عليه قول شاعرهم:

هل يَنْفَعَنْكَ اليومَ إنْ هَمَّتْ بِهَمّ
كثرةُ ما تُوصِي وَتعقادُ الرَّتَمْ[5]

ويذكر العلماء في معنى هذا البيت «أن رجلاً من العرب أراد سفراً، فأخذ يوصي امرأته ويقول: إياكِ أن تفعلي وإياكِ، فإنني عاقدٌ لك رُتْمةً بشجرة فإن أحدثتِ حَدَثاً انحلَّت، فقال الشاعر: هل يَنفَعْنك اليوم. . . .[6]».

التداوي بدماء الأشراف

وكان من عقيدة أهل الجاهلية أن الرجل إذا أصيب بداء الكَلَب فسُقي من دماء الملوك بَرِىء من علته هذه. والكَلَب بفتحتين: داء يعرض للإنسان من عَضِّ الكَلْب الكَلِب. والكَلِب من الكلاب هو الذي أكل من لحم الإنسان، فأخذه سُعار وداء يشبه الجنون، فإذا عَقر هذا الكلب إنساناً أصابه الكَلَب، وعَرضت له أعراض رديئة، إذ يعوي مثلَ عُواء الكلب، ويمزِّق ثيابَه عن نفسه، ويَعْقِر مَن أصابه، ثم يصير أمره إلى أن يأخذه العطش فيموت عطشاً[7].

---

(١) نفسه ٢ / ٨١

(٢) انظر في الرتم وما قيل فيه من الشعر: صبح الأعشى ١/٤٠٨، وبلوغ الأرب ٢/١٧، واللسان والتاج (رتم) والحياة العربية من الشعر الجاهلي ٤٠٢

(٣) اللسان والتاج (رتم)

(٤) الدرة الفاخرة ٢ / ٣٨٨

(٥) نفسه ٢ / ٣٨٨، والمعاني الكبير ٢٦٨، واللسان والتاج (رتم).

(٦) المصادر السابقة

(٧) اللسان والتاج (كلب)

ومن أمثالهم الدالة على ذلك قولهم: «دماءُ الملوكِ أَشْفَى من الكَلَب[1]» أو «دماء الملوك شفاءُ الكَلَب[2]».

ومن العلماء من يرى أن العرب كانوا يعتقدون أن دماء الشرفاء والرؤساء جميعاً تَشفي من الكَلَب، لا دماءَ الملوك وحدَهم، إذ يقول اللحياني: «إن الرجل الكَلِب يعض إنساناً، فيأتون رجلاً شريفاً، فَيقطر لهم من دم أصبعه فَيسقون الكَلِب فيبرأ[3]» وقد جاء في أشعارهم ما يؤيد هذا الرأي[4].

وقد دفع بعض أصحاب المعاني هذا فقال: معنى المثل أن دم الكريم هو الثائر المنيم، كما قال القائل:

كَلِبٌ من حسِّ ما قد مَسَّه
وأفانين فؤاد مختبل

وكما قيل:

* كلب بضرب جماجم ورقاب*

فإذا كلب من الغيظ والغضب، فأدرك ثأره فذلك هو الشفاء من الكلب، لا أن هناك دماً يشرب على الحقيقة.

التعشير[5]

وكانوا، في الجاهلية، يعتقدون أن الرجل إذا أورد قريةً فخاف وباءَها أو جِنَّها، ثم وقف ببابها، ونَهق عشرَ مرات كما ينهق الحمار صُرف عنه وباؤ ها[6]. وكان هذا العمل عندهم يسمى «التعشير» وهو مأخوذ من تَعشير الحمار[7].

ومن أمثالهم التي تدل على هذا قولهم لمن يَجزع حين لا ينفعه الجزع: «عَشَّرَ والموتُ شَجَا الوَريد»[8].

ويبدو أن هذا التعشير كان من معتقدات جُهَّال الأعراب، وأن أكثر العرب كانوا يرفضونه، ويسخرون منه، إذ يقول أحدهم:

ولا يَنفع التعشيرُ إنْ حُمَّ واقعٌ
ولا زَعزع يُغْنِي ولا كَسْبُ أرنبِ[9]

---

(١) الدرة الفاخرة ٢ / ٤٦١، ومجمع الأمثال ١ / ٢٧١

(٢) مجمع الأمثال ١ / ٢٧١

(٣) التاج (كلب)

(٤) انظر: الحيوان ٢ / ٥، وبلوغ الأرب ٢ / ٣١٩، والتاج (كلب).

(٥) انظر في هذه الخرافة وبعض ما قيل من الشعر: نهاية الارب ٣/١٢٥، وبلوغ الأرب ٢/٣١٥، ٣١٦، والحيوان ٦/٣٥٨، والمعاني الكبير ٢٦٨، والدرة الفاخرة ٢ / ٥٥٨، والحياة العربية من الشعر الجاهلي ٣٩٤، ٣٩٥.

(٦) نهاية الأرب ٣ / ١٢٥، وبلوغ الأرب ٢ / ٣١٥، واللسان (عشر).

(٧) يقال: عَشَّر الحمار، إذا تابع النهيق عشر نهقات، ووالى بين عشر ترجيعات في نهيقه.

(٨) مجمع الأمثال ٢ / ٤٢، ومعناه: أن هذا الرجل عَشَّر والموت قريب منه قد شَجِي به وريده.

(٩) الحيوان ٦ / ٣٥٨، والمعاني الكبير ٢٦٨

ويقول آخر:

لا يُنْجِينَّكَ من حِمامٍ واقعٍ
كعبٌ تعلِّقهُ ولا تَعْشِيرُ[1]

وفرة الأمثال العربية
ودور الشعر في نموها وتكاثرها

تمتاز الأمم الشرقية بالحكمة والمثل والقول المأثور، فهي وريثة حضارات روحية، قامت على ما جاءت به الأديان السماوية والكتب المقدسة، وعلى أقوال الأنبياء والرسل عليهم السلام ووصاياهم وحكمهم، وكانوا جميعاً يعيشون في الشرق، وينشرون رسالاتهم بين ربوعه، فلا غرو أن ينبغ في هذه الرقعة الفسيحة من الأرض كثير من الحكماء والبلغاء على مر العصور.

يضاف إلى ذلك أن المجتمعات الشرقية كانت، وما يزال الكثير منها، مجتمعات زراعية أو تجارية أو رَعوية. وفي مثل هذه المجتمعات تنمو الأمثال والحكم والأقوال المأثورة التي تنظم قواعد السلوك الخلقي والاجتماعي بين الناس[2].

والأمة العربية من الأمم الشرقية، ولكنها تمتاز على غيرها من هذه الأمم، بل ومن سائر الأمم بالبراعة في القول، وبالبلاغة والفصاحة، حتى لقد وَصلت في هذا إلى الغاية التي لا تُدْرك، وانتهت إلى الذروة التي لا تنال، يشهد بذلك وَفرة من نبغ فيها من الشعراء والحكماء والخطباءوالكتّاب، وما أثر عنهم من روائع الشعر، وشوارد الأمثال، ونوادر الحكم، وفرائد الخطب والرسائل.

وقد صدر عن هذه الأمة في الجاهلية من الأمثال ما لم يصدر عن أمة سواها، من حيث الكثرةُ والجودة معاً. ويكاد العلماء والدارسون قديماً وحديثاً يطبقون على هذا الرأي، إذ يقول ابن رشيق ت (٤٦٣ هـ): «العرب أفضل الأمم وحكمتها أشرف الحكم، كفضل اللسان على اليد[3]». ويقول جرجي زيدان: «ولا غرو إذا امتازت اللغات الأوروبية بالشعر القصصي فإن اللغة العربية وأخواتها تمتاز بنوع من الآداب كبير الأهمية، ليس منه في لغات الفرنج إلا نتف، نعني الأمثال، فإنها جزء مهم من آداب اللغات السامية، ولا سيما العربية والعبرانية، وتندر فيما سواها[4]. ويقول أحمد أمين: «إن العرب حقاً أجادوا في مضمار المثل من الأدب، وخلَّفوا لنا ما يدل على عقليتهم أكثر

---

(١) بلوغ الأرب ٢ / ٣١٦

(٢) انظر: فنون الأدب الشعبي لأحمد رشدي صالح ٢ / ٧

(٣) العمدة ١ / ٤، والمزهر ٢ / ٤٧١.

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٢٧.

مما يدلنا الشعر والقصص[1]».

وقارَن حمزة الأصبهاني، وهو فارسي الأصل، بين أمثال العرب وأمثال الفرس في قوله: «فأمثال الفرس مع تدوينهم لها، ونَمائها على الدهور القديمة لم تَعْشُر أمثال العرب، فقد حكى أبو عبيدة فيما رَوى أبو حاتم عنه أنه أوصل إلى أحمد بن سعيد بن سَلْم الباهلي أربعة عشر ألف مثل عربي، بعضها في الجلود، وبعضها في القُطْنى، وبعضها في القراطيس، وبعضها في الخزف[2]». وإذا كانت أمثال الفرس، وهي من الأمم ذات الحضارة والآداب العالمية، لم تبلغ عشرَ أمثال العرب، فما بالك بأمثال الأمم الأخرى؟! وإذا تساءلنا: وأين ذهبت كل هذه الأمثال، وما بأيدينا منها الآن لا يتجاوز ستة آلاف مثل؟ فإن الجواب عن هذا أن معظم هذه الأمثال قد ضاع فيما ضاع من كلام العرب، بسبب الأمية التي كانت غالبة عليهم في العصر الجاهلي، والتي لم تمكنهم من تدوين كل آثارهم، وبسبب الخطوب التي ألمت بهم فيما بعد فذهبت بكثير من كتبهم، ولأبي عمرو بن العلاء كلمة مشهورة تدل على ضياع معظم كلام العرب، وهي قوله: «ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[3] «ومثلها لعبد الصمد بن الفضل الرقاشي، الذي يقول: «ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثرُ مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يُحفظ من المنثور عُشْرُه، ولا ضاع من الموزون عشره[4]».

ولقد كان للشعر العربي في الجاهلية والإسلام أثر بالغ في نماء الأمثال العربية وتكاثرها، إذ إن كثيراً من أشطاره وأبياته يتضمن حكماً وأقوالاً صائبة أتاحت له أن يسير بين الناس، وتتداوله ألسنتهم وأقلامهم، فيدخل حظيرة الأمثال، ويختلط بالأمثال النثرية. ولكي نتصور أبعاد هذا الأثر نذكر أن الأمة العربية أنجبت من الشعراء ما لم تنجبه أمة أخرى، أياً كانت، وأن كثيراً من هؤلاء الشعراء كانوا من شعراء الحكمة. ولو رحنا نتصفح الشعر العربي لوجدنا أنه قلما تخلو قصيدة منه من بيت أو عدة أبيات سائرة، بل لوجدنا فيه قصائد برمتها خلصت للأمثال، ومن هذه القصائد أرجوزة أبي العتاهية التي تسمى «ذات الأمثال» والتي قال عنها أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ): «وهذه الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية، ويقال: إن له فيها أربعةَ

---

(١) فجر الإسلام ٦٤.

(٢) مقدمة «الامثال الصادرة عن بيوت الشعر» لحمزة (مخطوط).

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٢٣.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ١٥٨.

آلاف مثل»[1]، وقد نَوَّه حمزة الأصبهاني بدور الشعر في نَماء الأمثال العربيّة وتوالدها فقال: «فأبياتُ الشعر كَثَّرت أمثَال العرب، وزادت على أمثال سائر الأمم أضعافاً مضاعفة[2]» إلى أن قال: «فتفرُّد العرب من بين الأمم بكثرة الأمثال إنما هو بمادة الأشعار التي هي نامية بالتوالد على مدى الأيام كنماء النسل في الأنام» ومن قبل حمزة ألمَّ الجاحظ بهذا المعنى في قوله: «وفي بيوت الشعر الأمثالُ والأوابدُ، ومنها الشواهد، ومنها الشوارد»[3].

وإذا حللنا الأبيات الشعرية التي صدرت عنها الأمثال أمكننا أن نصنفها على النحو التالي:

١ـ أبيات يُتمثل بها كلِّها، صَدْراً وعَجُزاً، وهذا هو الغالب الأعم كقول زهير بن أبي سلمى:

ومهما تَكُنْ عند امرءٍ من خَليقةٍ
وإن خالها تخفَى على الناس تُعْلَمِ[4]

وقول المتلمِّس:

لِذي الحِلْم قبل اليوم ما تُقرَع العصا
وما عُلِّم الإنسانُ إلا لِيَعلما[5]

وقول عمرو بن معد يكرب:

إذا لم تستطع شيئاً فدَعْهُ
وجاوزه إلى ما تستطيعُ[6]

وقول المتوكِّل اللَّيثي:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثلَهُ
عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عَظيمُ[7]

٢ـ أبيات تقع الأمثال في صدورها دون أعجازها، كقول يزيد بن خَذَّاق:

«هَوِّن عليكَ ولا تُولَع بإشفاقِ
فإنما مالُنا للوارث الباقِي[8]

وقول المتلمس:

«وأطرق إطراقَ الشُّجَاع» ولو يرى
مَساغاً لنابَيْه الشجاعُ لَصمَّمَا

وقول الحُطَيئة:

---

(١) الأغاني ٤ / ٣٦ (دار الكتب).
(٢) مقدمة «الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر».
(٣) البيان والتبيين ٢ / ٧.
(٤) من معلقته.
(٥) فصل المقال ١٣١، وهو من الأصمعية ٩٢
(٦) جمهرة الأمثال ١ / ١١٧ وهو من الاصمعية ٦١.
(٧) جمهرة الأمثال ٢ / ٤١٢، وهو من قصيدة له في الأغاني ١٢ / ١٦٠.
(٨) جمهرة الأمثال ٢ / ٣٥٩
(٩) المستقصى ١ / ٢٢١، وهو من الأصمعية ٦٢.

«لكـلِّ جـديـدةٍ لـذةٌ» غيـر أنَّني
وجدتُ جديدَ الموت غيـرَ لذيـذِ[1]

٣ـ أبيات تقع الأمثال منها في الأعجاز دون الصدور، كقول صخر بن عمرو أخي الخنساء:

أهُمُّ بـأمر الحَـزْم لـو أستـطيعُـهُ
وقـد «حيلَ بَـيْنَ العَيْرِ والنَّـزَوانِ»[2]

وقول أبي الأسود الدؤلي:

ومـا طَـلَب المـعيشـةِ بـالتَّـمَنِّي
ولكن «ألـقِ دَلْـوكَ في الـدِّلاءِ»[3]

وقول الآخر:

يا باريَ القوس بَرْيـاً ليس يُحكِمُهُ
لا تظلم القَوس «أَعْطِ القَوس بارِيها»[4]

وقول الآخر:

ولقـد هَمَـمْتُ بـذاك إذ حُـبِسَـتْ
«وأُمِـرَّ دونَ عُـبَـيْـدَةَ الـوذَمُ»[5]

وقول الآخر:

وتَـرُوض عِـرْسَـكَ بعـد مـا هَـرِمَتْ
و «مـن الـعَـنـاء رِيـاضـةُ الـهَـرِمِ»[6]

وقول الآخر:

المستغـيثُ بعمـرو حـينَ كُـرْبتـه
«كـالمستغيثِ من الـرَّمضـاء بـالنـارِ»[7]

٤ـ أبيات صدورها أمثال، وأعجازها أمثال أخرى، كقول امرىء القيس:

الـلهُ أنـجـحُ مـا طـلـبـتَ بـه
والـبِـرُّ خـيـر حقـيـبـة الرَّحْـلِ[8]

وقول اللُّجَيْم بن صَعْب:

إذا قـالـت حـذامِ فـصـدِّقـوهـا
فـإن القـول مـا قـالت حَـذَامِ[9]

وقول لبيد:

ألا كلُّ شيء ما خـلا اللهَ باطـلُ
وكـل نعيـم لا محـالَـة زائـلُ[10]

---

(١) جمهرة الأمثال ٢/ ١٨ وهو من قصيدة له في ديوانه ١١٠.
(٢) جمهرة الأمثال ١/ ٣٧٢
(٣) نفسه ١/ ٧٣
(٤) نفسه ١/ ٧٦
(٥) نفسه ١/ ١٦٥.
(٦) نفسه ٢/ ٢٧٩
(٧) نفسه ٢/ ١٦٠.
(٨) نفسه ٢/ ٣٨٢، وديوانه ٢٣٨
(٩) جمهرة الأمثال ٢/ ١١٦
(١٠) نفسه ٢/ ٣٨٢

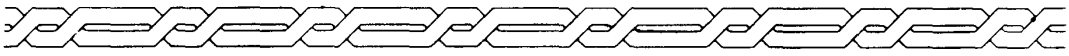

وقول طَرفة:

ستبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّدِ[1]

وقول أبي ذُؤَيب:

والنفس راغبةٌ إذا رَغَّبتَها
وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقْنَعُ[2]

وقول الحطيئة:

مَن يفعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جوازيَه
لا يذهب العُرْفُ بين الله والناسِ [3]

٥- أبيات يشتمل كل منها على ثلاثة أمثال، وهذا النوع نادر قليل، كقول النابغة الذبياني:

الرِّفق يُمْن، والأَنَاةُ سعادة،
فاستأنِ في رفقٍ تُلاقِ نَجاحا[4]

وقول زهير:

وفي الحلم إدْهانٌ وفي العفو دُرْبَةٌ
وفي الصِّدْق مَنجاةٌ من الشرِّ فاصْدُقِ[5]

وقول صالح بن عبد القدوس:

كل آتٍ لا بُدَّ آتٍ، وذو الجَهْل
مُعنًى بالغَمِّ، والحزن فَضْلُ[6]

٦- أبيات أخذ العرب من معانيها أمثالاً نثرية، فالمثل «أنا من غَزِيَّة» مأخوذ من قول دُريد بن الصِّمَّة:

وما أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غوت
غويتُ وإن تَرْشد غزيةُ أرشدِ[7]

والمثل «السَّعيد من وُعظ بغيره» مأخوذ من قول الحارث بن كلدة:

إن السعيد له في غيره عِظةٌ
وفي الحوادث تحكيمٌ ومعتَبَرُ[8]

والمثل «أطول صُحبةً من الفَرْقَدينْ» مأخوذ من قول عمرو بن معد يكرب:

وكل أخٍ مفارقُه أخوه
لَعمرُ أبيك إلا الفَرْقَدانِ[9]

والمثل «أَصْفىَ من لُعاب الجَراد» مأخوذ من قول الأخطل:

---

(١) من معلقته.
(٢) ديوان الهذليين ٣
(٣) ديوانه ٢٨٤ (القاهرة ١٩٥٨).
(٤) فصل المقال ٢٦٢، والعمدة ١ / ١٩٢.
(٥) المصدران السابقان، وهو في ديوانه ٢٥٢.
(٦) فصل المقال ٢٦٢، والعمدة ١ / ١٩٢.
(٧) جمهرة الأمثال ١ / ١٩٥
(٨) نفسه ١ / ٥١٢.
(٩) الدرة الفاخرة ١ / ٢٨٧.

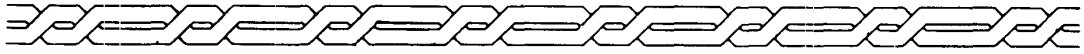

عُقَاراً كعين الدِّيك صِرْفاً كأنه
لعابُ جرادٍ في الفلاة يطيرُ[1]

والمثل «أضيع من غِمد بغير نَصْل» مأخوذ من قول مسلم بن الوليد:

وإني وإسماعيلَ يومَ فراقِهِ
لكا لِغمدْ يوم الرَّوْع فارقه النَّصلُ[2]

والمثل: «أَبْغَضُ من قَدَح اللَّبْلاب» مأخوذ من قول الشاعر:
يا بغيضاً زاد في البغض على كل بغيضِ[3]
أنت عندي قَدَحُ اللَّبْلابِ في كَفّ المريضِ

والمثل: «أدبُّ من الشمس إلى الغَسَق» مأخوذ من قول الآخر:

أرى الشيبَ مُذْ جاوزتُ خمسين دائبا
يدب دبيبَ الشمس في غَسَق الظُّلَمْ[4]

ومثلما أخذ الناس الأمثال من الشعر أخذ الشعراء الأمثال النثرية، وضمنوها شعرهم، إما مع المحافظة على أسلوبها وألفاظها، وإما بتصرف فيها إذ كان الوزن يقتضي ذلك، فمن

النوع الأول قول الأعشى:

ولم يُودِ من كنتَ تسعى له
كما قيل في الحرب «أَوْدَى دَرِمْ[5]»

وقول العُذَيْل بن الفَرْخ:

أصبحتَ من حَذَرِ الحَجَّاج منتجِباً
«كالعَيْر يَضْرطُ والمِكواة في النارِ»[6]

وقول الراعي:

وما هَجَرتُكِ حتى قلتِ معلنةً
«لا ناقةٌ ليَ في هذا ولا جملُ» [7]

وقول رؤبة:

عاذلُ قد أُولِعتِ بالتَّرْقيش [8]
إليَّ سِرًّا «فاطْرُقِي ومِيشِي»

وقول الشاعر في الحجاج بن يوسف:

شكونا إليه خراب السَّوادِ
فحَرَّم فينا لحومَ البَقَرْ[9]
فكنا كما قال مَن قبلنا
«أُريها السُّهَى وتُرِيني القَمَرْ»

(١) نفسه ١ / ٢٦٦.
(٢) نفسه ١ / ٢٧٨.
(٣) نفسه ١ / ٨٣
(٤) نفسه ١ / ٢٠٠
(٥) جمهرة الأمثال ١ / ١٦٧
(٦) نفسه ٢ / ١٢٣
(٧) نفسه ٢ / ٣٩١
(٨) نفسه ١ / ١٨٩
(٩) نفسه ١ / ١٤٢.

وقول الآخر:

ولا تـأمننَّ الحَـرب إن اشتغـارَهـا
كضبَّةَ إذ قال «الحـديثُ شُجونُ»[1]

وقول الآخر:

إحفظ لسـانَـك أن تقـول فتُبْتَـلَى
«إن الـبـلاء موكَّـلٌ بـالـمَـنْـطِقِ»[2]

وقول الآخر:

جمعتَ شَتَّى وقـد فـرقتَهـا جُمَـلاً
لأنتَ «أخسرُ من حَمَّالـةِ الحـطبِ»[3]

ومن النوع الثاني، أعني الأمثال التي تصرَّف الشعراء في ألفاظها أو أسلوبها، قول عديّ بن زيد:

إلبَسْ جـديـدَك إني لابسٌ خَـلَقِي
ولا جـديـدَ لـمن لا يَـلبس الخَـلَقا[4]

فإنه قد ضمن قولَهم: «لا جَديدَ لمن لا خَلقَ له»، وقول كعب بن زهير عن أبيه:

وأشبهتُـه من بين من وطىء الحصا
ولَم يَنْبُ عَنِّي شِبْـهُ خالٍ ولا ابنِ عَمّ[5]

فقلت شبيهـاتٍ بمـا قـال عـالمٍ
بـهـنَّ ومـن يُشْبـه أبـاه فـما ظَـلَمْ

فإنه قد ضمن قولهم: «مَنْ أشبه أباه فما ظَلم»، وقول نَهار بن تَوْسعة:

أُقَـتَيْـبُ قـد قلنـا غـداةَ لـقيـتَنـا
بَـدَلٌ لعمـرِكَ من يَـزيـدٍ أعـورُ[6]

حيث ضمن المثل «بَدَلٌ أعورُ» وقول أبي الأسود الدؤلي:

لعمرك ما شيءٌ عرفتَ مكانَه
أحقَّ بسَجْنٍ من لسـانٍ مُـذَلَّـلِ[7]

وهو مضمن قولهم: «أَحَقُّ شيءٍ بسَجْنٍ لسانٌ». وقول الشاعر:

إن كنتِ لا تُلْطفيني فـاقبلي لَـطَفِي
لا تَجْمعي بيَ سوءَ الكَيلِ والحَشَفا[8]

حيث ضمن المثل «أَحَشفاً وسوءَ كِيله!» وقول الآخر: الراعي النميري.

وكـانت كعَنْز السـوء جاءت لحتفهـا
إلى مُـدْيـة مـدفـونـةٍ تستثيـرُهـا[9]

(١) نفسه ١ / ٢٠٧
(٢) نفسه ١ / ٣٧٧.
(٣) الدرة الفاخرة ١ / ١٧٤.
(٤) جمهرة الأمثال ٢ / ٣٨٣
(٥) نفسه ٢ / ٢٤٤.
(٦) نفسه ١ / ٢٢٩.
(٧) نفسه ١ / ٢٢
(٨) نفسه ١ / ١٠١
(٩) نفسه ١ / ٣٦٣.

فإنه مضمن معنى قولهم: «حتفَها تبحثُ ضأن بأظلافها».

وهكذا تعاون النثر والشعر في فن الأمثال العربية، وأخذ كل منهما من الآخر، فنتج عن تعاونهما أمثالٌ جديدة، وأبيات جديدة، وهكذا أيضاً أسهم الشعر في الجاهلية والإسلام بنصيب موفور في تكاثر هذه الأمثال كثرةً مفرطة.

قصص الأمثال وعلاقتها بالقصة العربية

يرتبط كثير من الأمثال العربية بأخبار وأحاديث، يرجع معظمها إلى العصر الجاهلي، وهي التي يطلق عليها العلماء اسم «أصول الأمثال» أو «أسباب الأمثال».

وتدور هذه الأخبار والأحاديث حول الأحداث التاريخية، كأيام العرب في الجاهلية والإسلام، أو حول العلاقات بين الناس في معاملاتهم وحياتهم اليومية. أما الأشخاص الذين صنعوها فهم غالباً من مشاهير الرجال، كالملوك ورؤساء القبائل والعشائر، أو من سواد الناس وعامتهم، رجالاً ونساء.

هذه الأخبار والأحاديث أمدّت اللغة العربية بنوع فريد من النثر الفني، يمكن أن نعده من البذور الأولى للقصة العربية، إذ يشتمل على أهم عناصر القصة، وهي الأشخاص والأحداث والمكان والزمان، ويزخر بصور من حياة العرب الاجتماعية، حافلة بالعبرة والموعظة والفكاهة، وتتفاعل فيها الأشخاص والأحداث تفاعلاً حياً.

وقد أشاد محمود تيمور بهذا النوع من الفن القصصي إذ قال: «تُسرد أنواعُ النثر الجاهلي فتذكر من بينها الأمثال، ويُساق منها ما يُساق، ويغبن المؤرخون لوناً هو أعلى من الأمثال شأناً، وأقرب إلى الأدب نسباً، ذلك هو أصول الأمثال وحكاياتها، لا جُمَلها وعباراتها. والمؤرخون يتجافَوْن عن أصول الأمثال في أنواع النثر الجاهلي، لأنها عندهم ليست نصوصاً موثوقة بتعبيرها في الدلالة على ذلك العصر إذ دُوِّنت فيما بعد، على أنهم حين يؤرخون أدب العصور التالية التي تَمَّ فيها التدوين يُغفلون كذلك هذا اللون من الأدب القصصي. والواقع أن أصول الأمثال التي بين أيدينا تَحمل فيما تحمل صورة من النثر في العصور المتقدمة[1]» إلى أن قال: «لقد حوت جَعْبة الأخباريين في مختلف عصور العربية صوراً من الحياة الاجتماعية، تمثل نفسية الأمة العربية، وتجلو نظراتها إلى غرائز النفوس، وقيم الأخلاق، وأسباب المعاش، وبهذه

(١) محاضرات في «القصص في الادب العربي، ماضيه حاضره» ص ٢٨ (نشرة معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، عام ١٩٥٨ م).

القصص التي تسمى «الأخبار» نستطيع القول بأن فن القصة في الأدب العربي واضح في كل عصر، حيٌّ في كل عهد، تحتويه كتب الثقافة العربية، وتحتفي به، وإن جحده حَقَّه نقاد الأدب ومؤرخوه»[1].

ودرس فاروق خورشيد في كتابه القيم «في الرواية العربية[2]» القصة في الأدب العربي القديم دراسة واعية شافية، أثبت فيها بالأدلة العقلية وبالنصوص الصحيحة أن هذا الفن مُعْرق في أدبنا، وأنه فن أصيل غير ملفَّق ولا مزوَّر، وذهب إلى أبعدَ من هذا، فأثبت أنه كان مدوناً قبل الإسلام.

ثم مثل له بما جاء منه في كتابي «التِّيجان في ملوك حمير» لوهب بن منبِّه، و«أخبار ملوك اليمن» لعُبَيد بن شَرْية الجُرْهمي، ثم بما جاء في كتب التاريخ والسير والطبقات والأدب والأمثال.

وقال: «وأهم أشكال النثر التي عرفتها آداب العالم لتعبر عن روح الشعب وطبيعته الروايةُ والقصةُ، ولم يَخْلُ أدب في العالم من تراث قصصي كبير يُغْنيه، ويُثْري معرفته بتاريخ شعبه وحضارته، ويعود السؤال: وأدبنا العربي؟ أين فيه القصة والرواية؟ وقبله يأتي سؤال: أكانت حياة العرب بليدةً خامدة، لا تعرف التعبير عنها إلا في طبقاتها العليا المتصلة بالحكم والحكام؟ أعني: هل جَمد حِسُّ الشعب العربي إلا فيما يتعلق بأغراض القبيلة أول الأمْر، والخليفة بعد ذلك، فلم يحس بحاجته إلى لون من التعبير، يعبر عن مجموعه في مختلف طبقاته؟ الحقيقة تقول غير هذا، فحياة العرب في الجاهلية كانت، رغم كل شيء، حياة خصبة بالأحداث، مليئة بالحركة والنشاط، وناهيك بشعب يعيش دائماً على خطر، على خطر من الصحراء التي تحيط به دائماً، وتطبق على حياته من كل جانب، وهي بعد هذا مجهول مخيف، لا يَدري من أمره إلا القليل الأقلّ، وهو على خطر من اعتداء بعضه على بعض، يدفعه إلى هذا حاجةُ العيش، وقلّة الثروة، وضعف فرص الحياة إلا للأقوياء، وعلى خطر من اعتداء الآخرين عليه، فهو يقف في طريق اتصال الشعوب بعضها ببعض، وهو يتحكم في خط سير التجارة بين أجزاء العالم المعروفة آنذاك.

وناهيك بحياة هي سلسلة من الانتصارات على قوى الطبيعة مرة، وعلى القوى الخارجية أخرى، وهي أيضاً سلسلة من الهزائم الفاجعة أمام هذه القوى، متفرقة مرة، ومجتمعة مرات. هذه الحياة التي استمرت بما وَضعت لنفسها من قِيَم، وما خَلقت من تقاليد، وهذه

(١) نفسه ٢٩، وانظر أيضا/ص ٢٦.

(٢) مطبوعات «الجمعية الأدبية المصرية» وهو سلسلة من الأحاديث أذيعت بالبرنامج الثاني.

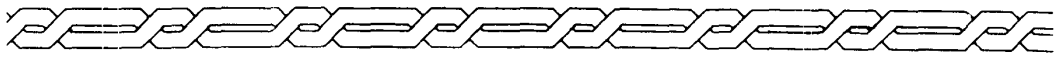

الحياة التي نشم فيها رائحة الصراع، ونسمع فيها جلبته كيف يمكن أن تخلو من كل صور الرواية أو القصة»[1]؟

وقال: «والعلماء مجمعون على أن العرب في الجاهلية كانت لهم قصص كثيرة ومتعددة، فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ والحكايات التي تدور حول أجدادهم وملوكهم وفرسانهم وشعرائهم، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يكاد يكون ذخيرة كاملة من القصص الذي تناقله الناس عن شعرائهم ومجالسهم وملوكهم.. وليس كتاب الأغاني هو المرجع الوحيد في هذا، بل إن المكتبة العربية غنية بأمثال الأمالي، والشعر والشعراء، وكتب الطبقات، بما لا يدع مجالاً للشك في أن الفن القصصي قد تناول الحياة الجاهلية في كل مظاهرها»[2].

ثم قال: «والواقع أنني لا أريد أن أزعم أنه كانت هناك قِصَص فحسب، بل أريد أن أصل من هذا الزعم إلى قضية أكبر، بأن أؤكد أن هذه القصص كانت بالمكان الأول من الحياة الأدبية، وأنها كانت الفن المفضَّل عند الغالبية العظمى، بينما حفلت أقلية خاصة بأمر الشعر والخطابة»[3].

وبهذا يكون العرب في الجاهلية قد عرفوا فنَّ القصة الذي يتمثل في أصول الأمثال والأخبار التي تتصل بها، وإن كان هذا الفن لم يدوَّن إلا حين أخذ العلماء في جمع الأمثال وتفسيرها، وبهذا أيضاً يسقط قول القائلين بأن العربية في عصورها الأولى كانت خالية من أدب القصة، وكأنهم يريدون القصة بمفهومها الحديث. ومن ناحية أخرى شكَّ بعض الدارسين للأمثال العربية في هذه القصص، وذهبوا إلى أنه من المحتمل أن تكون كلُّها أو بعضُها من نسج الخيال، ومن تزوير العلماء والرواة. ومن هؤلاء المستشرق الألماني «ولهايم»» إذ ذكر أن «فرايتاج» حاول أن يستخلص عُمْر هذه القصص وأمثالها من الحوادث التاريخية التي تشير إليها[4]، ثم قال معلقاً على هذه المحاولة: «ولم يخطر على بال «فرايتاج» هذا الخاطر القريب، وهو أن تكون القصص التي تروى مع الأمثال مخترعة، نُسجت خيوطها على ضوء هذه الأمثال، تماماً كما ترتبط القصص التبريرية ببعض أبيات الشعر العربي. حقاً يمكن أن يكون الأساس التاريخي المروي لنا، بالنسبة لهذا المثل أو ذاك مقارباً للحقيقة، غير أننا لا نملك الوسيلة

(١) ص ١٤ ـ ١٦
(٢) ص ٢٢، ٢٣.
(٣) ص ٥٤.
(٤) انظر أمثال العرب لفرايتاج (العصر الذي نشأت فيه الأمثال).

التي نقرر على أساسها في كل حالة ما إذا كانت الوقائع التاريخية التي تحيكها هذه القصص وقائعَ حقيقية أو مزيفة، لأن ما نعرفه عن الجزيرة العربية قبل الإسلام، وعن تاريخ القبائل هناك قليل جداً، وكذلك فإن القصص القليلة نسبياً، والقصيرة جداً في كثير من الأحيان، والتي تخبر عن عصور إسلامية لها في الغالب طابع الحكاية المسلية، ولذلك يندر أن يعثر عليها في أعمال المؤرخين، هذا إلى أن بعض الأخبار قد قام بوضعها اللغويون ليعللوا بها مثلاً من الأمثال»[1].

ثم جاء الدكتور عبد المجيد عابدين فبالغ في هذا المذهب قائلاً: «فلا شك أن طائفة كبيرة من هذه الأمثال كانت هي الأصل، ثم لُفِّقت لها القصص بعد ذلك لشرحها وتفسيرها... ومع ذلك كان هناك فئة من الرواة يتعقبون أصول هذه الأمثال، يرون أن ذلك من كمال صناعتهم، ومن موجبات حرفتهم. وفي هذا المجال كان «الاجتهاد» في تفسير الأمثال يلعب دوراً كبيراً في أقوال الرواة، فإذا نظرنا إلى القصص الواردة في أمثال الضبي لا بسعنا إلا أن نسأل في شيء من الدهش: كيف وصلت هذه الأمثال إلينا مقترنة هكذا بقصصها ومواردها، كأن الناس كانوا لا ينطقون الأمثال إلا ومعها هذه القصص؟! والرأي أن كثيراً من هذه القصص إنما جاء بعد تعرف الأمثال، وذلك حين بحث العلماء والرواة في أصول الأمثال ومناسباتها. قد تكون موضوعة في عهود جاهلية، وقد تكون حادثة في الإسلام، ولكننا على كل حال لا نجزم بأن هذه القصص صحيحة كلها»[2].

أما رأينا في هذه القصص فيتلخص في النقاط التالية:

١- أنها قامت على أحداث تاريخية مشهورة، أو وقائع حقيقية، رددها الشعر وهو «ديوان العرب» وسجل حياتهم، وسَجَّلتها كتب التاريخ والأنساب والآداب، وهذا التردد والتواتر في النصوص العربية يشهدان بصحتها.

٢- أنها قديمة قدَم الأمثال نفسها، وكان العرب في الجاهلية يعرفون تفاصيلها، ويتداولونها، يَرْوونها جيلاً عن جيل، حتى انتهت إلى عصر التدوين. وهذا الرأي هو الأشبه بالحق، والأقرب إلى العقل والواقع، لأن هؤلاء العرب كانوا يعاصرون هذه الأحداث والوقائع، بل ويصنعها بعضهم ويشترك فيها. أما القول بتلفيق الرواة لهذه

---

(١) الأمثال العربية القديمة ٥٠ (المترجم).

(٢) الأمثال في النثر العربي القديم (٣٧).

القصص، أو وضع اللغويين لها فهو قول مرفوض، لأنه لا يستند إلى دليل علمي أو عقلي، ويتجافى مع الواقع والمنطق السليم.

٣ـ أن العلماء الذين عُنوا بتدوين الأمثال وتفسيرها اجتمعت أقوالهم على صحة هذه القصص، فرووها في كتبهم، ونقلها بعضهم عن بعض، وكما نجدها في كتب الرعيل الأول من هؤلاء العلماء، وهم صُحار بن عياش، وعُبَيد بن شَرْبة، وعلاقة بن كُرشم، نجدها كذلك في كتب من أتى بعدهم، كأبي عمرو ابن العلاء،والشرقي بن القطامي، والمفضل الضبي، ويونس بن حبيب، وأبي عبيدة، وأبي زيد، والأصمعي، والقاسم بن سلام، وغيرهم من علماء اللغة والأدب والأخبار. ومثل هؤلاء العلماء لا يمكن وصفهم بالغفلة وعدم التمييز بين صادق الأخبار وكاذبها، كما لا يمكن وصفهم بالتلفيق والتزوير في الأخبار والمأثورات الأدبية. وكيف يمكن ذلك وهم الذين نقلوا إلينا اللغة، مفرداتٍ وأساليب، ونقلوا الشعر الجاهلي وما يتصل به من أخبار، ونقلوا الأمثال والخطب والوصايا. فإذا جاز لنا أن نرفض ما نقلوه من أصول الأمثال وأسبابها، وأن نصفه بالتلفيق والتزوير والوضع، جاز لنا، قياساً على ذلك، أن نرفض كثيراً مما قالوه عن اللغة وآدابها، وجاز لنا من ناحية أخرى، أن نرد كثيراً مما قاله المؤرخون والنسّابون. وهذا أمر لا يرتضيه عاقل.

٤ـ أن ندرة القصص والأخبار الإسلامية التي تتصل بالأمثال في كتب التاريخ الإسلامي ليست دليلاً على افتعالها واختراعها، كما يذهب إلى ذلك «زلهايم» لأن هذه الكتب إنما تؤرخ للخلفاء والملوك والولاة والحكام، أولئك الذين جرت على أيديهم وقائعُ وأعمال كبرى، غيرت مجرى التاريخ، ولا شأن لها بمن عداهم من رؤساء القبائل والعشائر أو عامة الناس، وهم الذين كانت الأمثال تدور حولهم غالباً.

٥ـ أن نظرية التلفيق والتزوير في النصوص العربية بصفة عامة نظرية تقوم على التخمين والتكلف، واعتساف الأدلة، وتصيّد الأسباب، ولم يقم عليها حتى الآن دليل قاطع من أقوال العلماء الثقات، ولا من وقائع التاريخ العربي، فكيف يجوز لنا أن نتبنّاها ونسترشد بها في دراسة اللغة العربية وآدابها؟!

وبعد هذا نقول: إن لهذه القصص والأخبار قيمة أدبية جلى، يمكن تفصيلها فيما يلي:

١ـ أنها تعين على فهم الأمثال فهماً دقيقاً، وذلك بتفصيل الأحداث التي تكتنفها، كما أنها تُعين على تحديد مضاربها واستخدامها في الكلام استخداماً سليماً.

٢ـ أنها ساعدت الأمثال في الكشف عن جوانب شتى من حياة العرب في الجاهلية

وصدر الإسلام، وهي جوانب لا تستطيع الأمثال، بإيجازها الشديد، أن تجلِّيها، وتلم بكل تفاصيلها.

٣ـ أنها حَدَّدت لنا، إلى درجة كبيرة، العصور الأدبية والبيئات المكانية للأمثال، عن طريق التعريف بـالأعلام والأحـداث التي تتضمنها ألفاظ الأمثال.

٤ـ أنها أضافت إلى الأدب العربي نوعاً فريداً وبارعاً من النثر الفني، زاخراً بمعالم الحياة العربية في العصر الجاهلي، وهو الذي نَوَّهنا به فيما مضى، وعَدَدناه من البذور الأولى للقصة العربية.

دكتور

عبد المجيد قطامش